

الحجاج في خطبة طارق بن زياد

باسين بلعباس

مديرية التربية/الاغواط

الملخص:

تعتبر خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس أنموذجا راقيا للخطبة ذات المحتوى العسكري، والمرصعة بفنون القول وجمال العبارة ودقة الأسلوب. وحاولت هذه الدراسة أن تحللها بالمقاربة المجاجية لإظهار ما قام به الخطيب من إقناع جنده لاقتحام المعركة وبلوغ الهدف الذي قطع من أجله المضيق، وأحرق خط الرجعة نهائيا إلى المغرب. وما هي قواعد هذا الحجاج الذي أقنع من خلاله جنده وانهى إلى فتح البلاد وقتل قائدها وأسر الآلاف من جنودها.

Abstrat :

Tariq ibn Ziyad's speech in the conquest of Andalusia is a fine example of the sermon with military content, and is studded with the art of saying and the beauty of the phrase and the accuracy of style. This study was analyzed by the approach Argument to show what Spellbinder did to convince his soldiers to break into the battle and achieve the goal, The final return to Morocco. And what are the rules of this arguments , .who persuaded the soldiers and ended up to open the country and killed the commander and captives a thousands of soldiers

الكلمات المفتاحية:

الخطبة؛ العدو؛ أمامكم؛ البحر؛ وراءكم؛ الصبر؛ اللثام؛ سيوفكم؛ الحجاج؛ المصطلح؛ القاعدة؛ الروابط؛

الخاتمة؛

النص:

"أيُّها النَّاسُ، أين المفر، البحر من ورائكم، والعدوُّ أمامكم، وليس لكم والله إلا الصِّدْقُ والصَّبْر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مَادَبَةِ اللثام، وقد استقبلكم عدوُّكم بجيشه، وأقواته موفورة وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكم إلا ما تَسْتَخْلصونه من أيدي أعدائكم. وإن امتدت لكم الأيام على افتقاركم، ولم تُنجِزوا لكم أمراً، ذهبَ ربحُكم، وتعوّضَ القلوبُ من رُعبها منكم الجرأةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خُذلانَ هذه العاقبة من أمركم بمنَاجزة هذا الطاغية، فقد أَلَقْتُ به إليكم مدينته الحصينة .

وإن انتهزَ الفرصة فيه لمُمكنٌ إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذرْكم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص فيها متاع النفوس إلا وأنا أبداً بنفسي. واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشقِّ قليلاً استمتعتم بالأرفه الألدَّ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدرِّ والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، والمقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا، ورضيكم ملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ... ليكونَ حظُّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكونَ مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكونُ لكم ذكراً في الدارين .

واعلموا أنّي أوّلُ مُجيبٍ إلى ما دعوتكم إليه، وأنّي عند مُلتقى الجمعِين حاملٌ بنفسِي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكَ بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يُعوزكم بطلٌ عاقلٌ تسندون أموركم إليه، وإن هلكَ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزمي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخذلون ."

المقدمة:

تعتبر خطبة طارق بن زياد نصاً إبداعياً يشهد على فترة من التوسع الإسلامي فكرياً وجغرافياً في كل أنحاء العالم، وفي الغرب الأوربي خاصة، وهي خطبة تجمع إلى جانب القصد الديني في نشر الدعوة الإسلامية وراء البحر غرباً، فهي تحتوي الخطة العسكرية في كيفية سياسة الجند، وحثهم على مواجهة العدو أولاً، ومعرفة كيف يستطيع القائد الحنك أن ينقل المعركة إلى ديار خصمه بكل قوة واقتدار متأكداً من النصر، وموقناً به ثانياً، وكيف يستطيع القضاء على قائد العدو بغرض إنهاء الحرب، وإعلان الانتصار. وكذلك في معرفة دخائل نفوس جنوده وما اللغة التي تناسبهم في هذه الحالة..

وقد وجدت الدافع إلى دراستها مرتبطاً بالتاريخ في أزهى فتراته، وحاولت ربط ما أنتجه هذا القائد الفذ بما أنتجه الفكر الإنساني من نظريات ومناهج دراسية لفعل الكلام هذا، فكانت المقاربة المحاجية منهاجاً لها، خلصت من خلالها إلى أن أحداث التاريخ يمكنها أن تصنع من اللاشيء، إذا كانت النوايا صادقة والعزائم مخلصية، ولبساً مع الصبر.. وعليه فالصدق والإخلاص والصبر، إذا اجتمعت صنعت صحيفة كتبت في مروج ذهب التاريخ.

العرض:

هل نقول إن الخطبة عمل فني؟ ونقصد بالعمل، القعود له، وتوضيحه، وحسن صناعته، وبالتالي هل نعتقد أن طارق بن زياد قعد له هذا المقعد، وترصد له كما يفعل الكُتّاب والخطباء...؟

لا تذكر كتب التاريخ ذلك، ولا تشير إليه، ولم يحفل أحد بالإشارة أن الفاتح بن زياد قد اهتم بصناعة الخطبة، بل إن منهم من يقول: "إن طارق بن زياد لما استقر بأرض الأندلس، وبلغ دنو لذريق منه قام في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم في الشهادة، ثم قال: "أيها الناس، أين المفر...؟" كما ذكر المقرئ⁽¹⁾، وابن خلكان⁽²⁾. أما ابن هذيل الأندلسي، فقال: "فاقتلوا ثلاثة أيام أشد قتال، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة، فقام يعظهم ويحضهم على الصبر ويرغبهم في الشهادة ثم قال: أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم..".

وإذا صَحَّتْ رواية ابن هذيل، فلا يُعقلُ أَنَّ الرَّجُلَ تَهَيَّأَ لِلخُطْبَةِ، والمَعْرَكَةُ مُشْتَدَّةٌ أَوَّارُهَا، مُرْتَفَعٌ غَبَارُهَا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى نَاحِيَةٍ لِيَكْتُبَ، أَوْ يَصْنَعَ خُطَابًا حَمَاسِيًّا

ومَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ فَالْأَكِيدُ أَنَّ الخُطْبَةَ أَوْجَدَتْهَا حَالَةٌ وَاحِدَةٌ وَظَرْفٌ لَا يَخْتَلِفُ حَوْلَهُ المؤرُخونَ: وهو فَتْحُ الأَنْدَلُسِ، سَوَاءٌ أَكَانَ قَبْلَ المَعْرَكَةِ، وَالتَّحَامِ الجيُوشِ، أَمْ بَعْدَ التَّحَامِهَا، وَقَدْ اشْتَدَّتْ فِي المَعْرَكَةِ أَوَّارُهَا.

أ/ مشكلة المصطلح:

حَتَّى نَدْخُلَ الدَّرَاسَةَ بِأَمَانٍ لَا بُدَّ مِنْ إِزَالَةِ مُشْكَلَةِ المِصْطَلَحِ فِي التَّحْلِيلِ المُعْتَمَدِ وهو (الحجاج). فَمَا المَقْصُودُ بِهِ؟ إِنَّهُ: "عَمَلِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ تَتَرَابُطُ فِيهَا الحُجُجُ والأَدَلَّةُ بِنَاءً عَلَى طَرِيقَةٍ تُعَرِّضُ بِهَا الفِكْرَةَ المَعْبَرَّ عَنْهَا لِلإِقْنَاعِ بِهَا.." (3). كَمَا تَحْمِلُ المَفْرَدَةُ فِي ذَاتِهَا دَلَالَةَ الإِقْنَاعِ وَالتَّأْثِيرِ فِي المُتَلَقِّي أَيْضًا، فَهُوَ يَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ الإِقْنَاعِ وَالدَّخْضِ.

"وَرَبَّمَا كَانَتْ وَظِيفَتُهُ مُحَاوَلَةً جَعَلَ العَقْلُ يُدْعِنُ لِمَا يُطْرَحُ عَلَيْهِ مِنْ أَفْكَارٍ أَوْ يَزِيدُ فِي دَرَجَةِ الإِذْعَانِ إِلَى حَدٍّ يَبْعُثُ عَلَى الفِعْلِ المَطْلُوبِ.." (4). وَيَرَى آخَرُونَ إِنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ جِذْرِ لَا يَتَنَبَّي قَدِيمٌ: "وَالَّتِي تَعْنِي إِظْهَارُ الشَّيْءِ، وَتَلْبِيْعُهُ.." (5)

وإذا كَانَ الحِجَاجُ كظَاهِرَةٍ تَتَعَلَّقُ بِاسْتِعْمَالِ اللُّغَةِ، فَالْأَكِيدُ أَنَّهُ: "مِنْ الصَّرُورِيِّ البَحْثُ فِي بَنِيَّةِ اللُّغَةِ ذَاتِيًّا عَنِ الآثَارِ الَّتِي يُخَلِّفُهَا فِيهَا هَذَا الاسْتِخْدَامُ الحِجَاجِي.." (6)

إِنَّ خُطْبَةَ طَارِقِ بْنِ زِيَادٍ قَدْ اسْتَوَفَتْ وَجُودَ طَرَفَيْنِ رَئِيسِيَّيْنِ يَمَكِّنَانِهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ خُطَابًا حِجَاجِيًّا وَهُمَا: الحُجَّةُ وَالنَتِيجَةُ: "إِنَّ الحُكْمَ عَلَى خُطَابٍ مَا بَأَنَّهُ خُطَابٌ حِجَاجِيٌّ يَقْتَضِي احْتَوَاءَهُ عَلَى مَلْفُوظَيْنِ اثْنَيْنِ عَلَى الأَقْلَى، يَقُومُ أَحَدُهُمَا بِتَعْلِيلِ الآخَرِ، فَيُسَمَّى الأَوَّلُ حُجَّةَ الرَّأْيِ المَعْرُوضِ، وَالثَّانِي نَتِيجَةَ حُجَّةِ الرَّأْيِ المَعَارِضِ" (7). وَمِنْ هُنَا يَكُونُ الدُّخُولُ إِلَى نَصِّ الخُطْبَةِ مُحَاوَلًا تَحْلِيلَهُ بِاعْتِمَادِ المُقَارَبَةِ الحِجَاجِيَّةِ. كَمَا أَنَّهَا وَظَلَّتِ اللُّغَةَ فِي بِنْيَتِهَا تَوْظِيفًا ذِي أَبْعَادٍ دَلَالِيَّةٍ ... وَلِلإِجَابَةِ عَنِ السُّؤَالِ المَدْخَلِ، لَا بُدَّ مِنْ تَوَافُرِ عَوَامِلٍ مُعَيَّنَةٍ فِي أَيِّ عَمَلٍ حَتَّى يَتَّصِفَ بِالفَنِيَّةِ.. "إِنَّ العَمَلَ الفَنِيَّ الحَقَّ، هُوَ الَّذِي يَجْمَعُ — إِلَى جَانِبِ تَوَافُرِهِ عَلَى مَوَاقِفَ إِنْسَانِيَّةٍ نَبِيلَةٍ، وَأَفْكَارَ رَفِيعَةٍ — عُنَاوِرَ الاتِّسَاقِ وَالانْسِجَامِ وَالإِثَارَةِ وَالإِحْسَاسِ بِالجَمَالِ.." (8)

فهل حَقَّقَتِ الخطبةُ هذهِ العناصرَ؟

ليس سهلاً الجواب بنعم..دون إثبات قوالب التحقيق، لسانياً، ولغوياً..وليس صحيحاً الاعتقادُ بغير ذلك..ولكننا نميلُ الآنَ إلى التحليلِ الحجَاجيِّ..وما قام به الخطيبُ في سبيلِ إيصالِ رسالتهِ إلى الجندِ، والظرفُ لا يتطلبُ غيرَ تلكِ الرسالةِ الصَّريحةِ، الفَصِيحةِ .

فَمَا الَّذِي حَدَثَ؟

الذي حَصَلَ :إتيانُ خطبةٍ، تُعتبرُ مرجعاً في فنِّ الخطابةِ، وخُطةٍ عَسْكَرِيَّةٍ، ومادَّةٍ تَأْرِيخِيَّةٍ، وأُموذَجاً في التَّصَدِّيِّ لِلْمِحَنِ، وَقَتِ الإِحْنِ..

والمقصودُ بالحِجَاجِ.." تعني لفظةُ حِجَاجٍ في اللغةِ العَرَبِيَّةِ المُنَازَعَةُ بِالْحِجَّةِ أَوِ الدَّلِيلِ أَوِ البُرْهَانِ، أي مُقَابَلَةُ الْحِجَّةِ بِأَخْتِهَا.." ⁽⁹⁾. كما يُعرِّفُه ماس: "سِياقُ من الفعلِ الكَلَامِيِّ تُعرَضُ فيه فَرَضِيَّاتٌ وَادِّعَاءَاتٌ مُخْتَلَفَةٌ فِي شَأْنِهَا.." ⁽¹⁰⁾

فَمَا الَّذِي فَعَلَهُ الْخَطِيبُ كَلَامِيًّا ؟ وَمَا الَّذِي عَرَضَهُ مِنْ فَرَضِيَّاتٍ ؟
إِنَّ الْخَطِيبَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ اسْتِعْمَالِ وَسَائِلَ عِدَّةٍ لِإِقْنَاعِ الْمُسْتَقْبَلِ، أَوِ الْمُتَلَقِّي، وَكَانَ ابْنُ زِيَادٍ فِي هَذَا الظَّرْفِ فِي أَمَسِّ الْحَاجَةِ إِلَى هَذَا الْفِعْلِ الْكَلَامِيِّ..

قَوَاعِدُ الْحِجَاجِ فِي الْخُطْبَةِ:

القاعدة الأولى:

لقد مَارَسَ منذ الوَهْلَةِ الأولى سُلْطَةَ القَائِدِ، وأُثْبِتَ أَنَّهُ يَتَصَرَّفُ مَعَ جُنْدِهِ تَصَرُّفَ الْعَارِفِ بِجَبَايَا الْحَرْبِ، وَمَكَامِنِ نَفُوسِ الْجُنْدِ، وَلَيْسَ فِي مَوْضِعِ اخْتِبَارٍ، أَوْ مَوْقَعَةٍ تَحْتَاجُ التَّجْرِبَ وَالْمَلَاخَظَةَ، وَلَكِنَّهُ اعْتَمَدَ التَّرْهِيْبَ: [الْعَدُوُّ أَمَامَكُمْ..] فَالْأَمْرُ يَتَطَلَّبُ الْحَزْمَ، وَالْقُوَّةَ لِمُقَاتَلَتِهِ وَعَدَمَ التَّفَكُّيرِ فِي التَّوَلَّى أَوِ التَّرَاجُعِ، لِأَنَّ: "الْبَحْرَ مِنْ وَرَائِكُمْ".

وهم أشبه بالأيام في مأدبة اللثام..فإن كان عدوه لثيماً، فالحال أنه أضيع وحاله أبشع، وأمره إلى الهلاك أوقع..

فالقاعدة الأولى هي : التَّرهيب..ليس لهم بدٌّ من الحرب : النَّصْرُ أَوِ الشَّهَادَةُ..
وهي قاعدة تَبَيَّنَ بِجَلَاءِ مِمَارَسَةِ التَّأْثِيرِ الْفِكْرِيِّ الْمُنْهَجِيِّ عَلَى الْمُتَلَقِّي [الجندي] وَيَتَّضِحُ مِنَ الْعِبَارَةِ أَنَّ الْبَنِيَّةَ حَمَلَتْ الْمَعْنَى مِنْ خِلَالِ التَّضَادِّ [وراءكم/أمامكم] الَّذِي لِحَقِّ الْاسْتِفْهَامِ [أَيْنَ الْمَفْرُ؟] وَلَمَّا

ارتبط الوراء بالبحر وهم من دون مراكب تنجيهم، والأمام بالعدو، فقد تجاوز المعنى إلى [معنى المعنى]⁽¹¹⁾.

وعلى هذا يتضح أنه استعمل قاعدة (الكم)⁽¹²⁾ ومنها نستنتج أن: "الحجة حقيقة تفاعلية تتجلى في تزاوج القصد والتكلم كالاستماع والسياق واندماجها جميعاً في بنية مقامية واحدة تؤهلها لأن تكون عملاً حقيقياً ملموساً ذا خلفية عقلية.." ⁽¹³⁾.

لقد خاطب الكل دون استثناء. وكان التفاعل بين القصديّة والسياق، وحل الاندماج في بنية فرضها المقام، وأبلغها (المقال).

القاعدة الثانية:

ولأنه ليس من الضروري أن يكون الجند كلهم في حالة من الشدة، والمناجزة للعدو، فقد ارتقى في أسلوب الخطاب، ليكون التعجيل بالنصر. فلاستجابة يجب أن تكون من الجميع، ولتحقيق ذلك ينبغي أن يكون التبليغ بغرض. "تحقيق الإثارة وإحداث انفعال معين لدى المتلقي، بفضل يستجيب لفحوى الخطاب وينتهي لقبول نتائجه والتسليم به.." ⁽¹⁴⁾ وما ينجر عنه من نعيم دنوي والإقبال على الموت والشهادة وما يقابله من نعيم أخروي، من أسس التّغريب في المقاتلة بقوة لا تلين، وعزيمة لا تفتر، بل إن الدّعوة إلى النصر السريع، عاجلاً غير آجل.

"وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تُنجزوا لكم أمراً، ذهب ربحكم، وتعوّضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم .."

القاعدة	البناء	العلة/الحجة	المقابل	الخدلان
التعجيل بالنصر	الإسراع في الإنجاز	لم تُنجزوا لكم أمراً	ذهب ربحكم	الجرأة عليكم

وحجة الإسراع بالنصر، عدم ترك الفرصة للعدو لاسترجاع الثقة بنفسه، ومساورة فكرة الصّد، وإرجاع جيش المسلمين.. فالقاعدة الثانية هي: التعجيل بالنصر. ولتوضيح القاعدة أكثر يمكن رسمها في هذا الجدول:

والملاحظ أن العبارة الأولى في البناء، تناسبها العبارة الثانية في خانة العلة/الحجة: [لم تُجزوا لكم أمراً..] وليس من المعقول أن يكون التعجيل بالنصر ناتجاً عن التخاذل، وعليه فقد أراد أن يجعل من الخذلان [في حالة المساورة/أو التردد] علة عليهم وحجة في الانكسار لا الانتصار، ولهذا طلب الإسراع في التنفيذ .

فكان المهمة التي من أجلها تم قطع البحر، وقطع وسيلة الرجوع. [حرق السفن] لم تنجز، وبالتالي فليس لهم من ملجأ إلا البحر، أو مقارعة العدو بالقوة والحديد..إنه الترهيب : كونوا أولاً تكونوا .

القاعدة الثالثة :

التعريض..ويقصد به استعمال ما ألقاه المتلقي في الخطاب على غير ما يُريده الخطيب من الاستقبال..ونجده في الخطبة بداية في قوله: "وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأقواته موفورة".. فقد اعتاد الناس استعمال لفظة [استقبال] لمن كان ضعيفاً. تجب وفادته، ويليق تكريمه.

لكن الخطيب استعملها هنا ليدلل أن العدو في موقف المقتدر، وأن الجيش في موضع العنصر الدخيل على الموقع، وليس له من خيار إلا إثبات الحالة، وخاصة أنه أردفها بجملة اسمية وقعت حالاً. [وأقواته موفورة] . وهو من قبيل التعريض كقوله تعالى:.. فبشرهم بعذاب أليم". (الانشاف 24) فالبشارة لا تكون للشيء من الأمر، ولكنها للخير والجد ونجده في النص في موقع آخر كذلك: " وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموء.. "فالسماح للنفس، لا يكون بالموء بل بأمر آخر. وهذه القاعدة يمكن أن نصفها بالحجاج الخاطيء، فهو يوهم بالشيء، ويقصد غيره، ويمكن أن تحدث في نفس المتلقي ثغرات في الاستقبال، سببها بنية الصياغة، وظرف الخطاب.

وينتج عنها طرح أسئلة استكشافية/ :

1/ هل أنا في موضع الضيف؟

2/ هل يستقبل المضيف ضيفه بالسيف؟

3/ هل المحارب لا يسمح لنفسه بالموء؟

4/ هل الموت كائن حي؟ أم هو مبتغى المقاتل المسلم/ الشهادة..

القاعدة الرابعة:

حجة السلطة:

تقوم هذه الحجّة في النصّ على فكرة الأمر، والاستجابة له، فالقائد يخرق بنصّه عقل الجند ليكون له سلطان الأمر. وفرض السلطة، والسيطرة على الموقف من حيث هو ظرف لا يقبل اللين أو التراخي..

وفلسفة القوة لا يعدمها ظرف الحرب، ولا يفقدها قائد المعركة، وفي النصّ نجدّها منتشرة في أكثر من موضع، منها:

"وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم"..النفي والاستثناء.

"..، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمنجزة هذا الطاغية"..

الفاء/ الجر/ الإشارة⁽¹⁵⁾

"..وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزيانا.."

العطف/ قد التي للتحقيق / الجر..

"..ملتقى الجمع حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى.."

حروف الجر/ الفاء الرابطة/ الشرط

لقد كان الخطيب يحمل فكر القائد المحنك، والبطل المتمرس بأمر الحرب، وأخلاق القيادة، والعلم بساينولوجية المحارب..

وحقّ يكون خطابه مؤثرا، لم يؤثر نفسه عليهم، ولم يكن بأفضلهم، أو يدعهم إلى ما لا يقوم به هو..

فالسُّلطة تفرض عليه أن يكون حكيماً في سياسة الجند..مقدماً نفسه في المعركة، مظهراً أحسن البلاء، ليكون لهم القدوة والمثل، ويُحقّق بهم ما جاء من أجله.. "واعلموا أنّي أولّ مجيب إلى ما دعوتكم إليه"..

وفي هذه الجملة المعنى يفيض عن الحاجة حين استعمل الأمر وتوكيده وهو يطن الغاية بالترغيب في موضع الشدة. "... ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ليكون حظُّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دُون المؤمنين سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين..."

يتكلم عن المصاهرة في زمن الحرب، وعن الفوز بالمغانم، في زمن [السماح للأنفس بالموت] كما يقول الخطيب.. ولكن الترغيب يسمو عن كل هذا حين يتكلم عن إعلاء كلمة الله تعالى، عندها لا يكون الإغراء بالمصاهرة، ولا بالمغانم، ولكن بثواب الله تعالى.. ليكون حظُّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة..

ويتضح السياق أكثر في هذا الجدول:

وفي السياق ذاته هذه الحجة

القاعدة	البناء	الحجة/العلة	المقابل
النصر على العدو	مغانم خالصة لكم	سلطة المال	الذكر في الدارين (إغراء مادي)

والنتيجة:

دعوة إلى البلاء في المعركة.. ولم يفصل الخطيب حجاج السلطة، عن حجة 1/ التبرير: "ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً..".

2/ والتعليل: "...ليكون حظُّه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته. وإظهار دينه بهذه الجزيرة.. هذا ما كان من حظ الخليفة من جنده..

القاعدة	البناء	الحجة/العلة	المقابل	المنحى
النصر على العدو	إظهار دينه بهذه الجزيرة	سلطة الدين	ثواب الله (إغراء روحي)	ارتقاء

فما حظ الجند من هذه الحملة العسكرية؟..

"1/ الإغراء: "وليكون مغنمها خالصاً لكم.."

2/ التفضيل: "مَنْ دُونَهُ وَمَنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ" ..

فتبريرُ المعركة، وفتح الأندلس للخليفة، إعلاءُ كلمة الله / وثوابُ الله، وأما الجندُ فلهم مثل ذلك وزيادة..

فأما مثل ذلك:

"..والله تعالى وليُّ إنجادٍ كم على ما يكونُ لكم ذكرًا في الدارين.. " وأما الزيادة: الإغراء بالماديَّات [المصاهرة/المغانم الخالصة] والمفاضلة عن غيرهم بالرتبة والمنزلة وهذا الحجاجُ يدخلُ ضمنَ السُّلَم الحجاجيِّ، ونقصُده به تبريرُ ما يذهبُ إليه الخطيبُ مِنَ القول، من حيثُ: "هو تلازمٌ بينَ قولِ الحجَّة وتبريرِها" (16)

وكانَ هنا التبريرُ المقدمُ واضحاً، كأنَّه يوجبُ عن طرحِ أساس:

أستجيبُ/لماذا؟

أحاربُ/لماذا؟..

أنتصرُ في المعركة/ماذا أستخدم؟

أستشهدُ في المعركة/ماذا يحدث؟

إنَّ الخطابَ قد أمله حالة ظرفية منحتَه اللغة قوَّة الحجَّة، وحجَّة القوَّة أيضاً، لقد: "صارَ بعداً ملازماً لكلِّ خطابٍ على وجه الإطلاق، والسببُ في ذلك أنَّ كلَّ خطابٍ حالٌّ في اللغة تمنحه هذه الأخيرة العناصرَ الأولى والقاعدية لكلِّ حجاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل.." (17)

قاعدة الربط الحجاجي:

والمقصودُ به ما تداوله الخطيبُ من روابط داخل نصِّه، لتحقيق الوظيفة الحجاجية. وهذا الجدول يبيِّن الروابط المختلفة التي استعملها الخطيبُ هنا:

العبارة	أيُّها الناس	أين المفر؟	ليس لكم	والله	إلا الصبر والصدق	إن امتدّت لكم الأيام	فادفعوا	ليكون ثوابه منكم	فقد ألقت مدينته إليكم
الرابط	النداء	استفهام	النفي	القسم	الحصر/العطف	الشرط/ حرف الجر	ف/ الرابطة	لام التعليل	قد

قاعدة: الطاعة / الاستطاعة:

ونقصدُ بها ما يحدثه الخطيبُ من تجاوب مع جنده، حين يطلبُ منهم إنجاز أمر بالمقدور تحقيقه، ولا يكلفهم ما يعجزون عنه.. والقاعدة في ذلك: إذا أردت أن تطاع، فأمر بما يستطاع.. والخطيبُ لا يأمر الجند، ويتعدّ هو عن الإنجاز، بل يتقدّمهم: "واعلموا أنّي أوّلُ مجيبٍ إلى ما دعوتكم إليه"..

فهي دعوة إلى: "افعلوا، وأنا أوّلُ الفاعلين".. وهي تنبئ بأخلاق القائد المطاع. وتكشف عن قدرته العسكرية، وأخلاق البطولة.. أو ما كان يعرف قديماً بأخلاق الفرسان. وموضع هذا متعدّد في النص:

وهذا الجدول يوضح أكثر:

العبارة	المأمول	صفة القائد
وإن انتهاز الفرصة فيه ممكنٌ	إمكانية الانتصار	بثّ الروح القتالية
وإنّي لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة	الاقتداء واقتحام المعركة	يتقدّم الصفوف
ولا حملتكم على خُطة أرخص فيها متاع النفوس	تضحية الجميع بالنفس	رسم الخطة الناجحة
الصفوف واعلموا أنّي أوّلُ مجيبٍ إلى ما دعوتكم إليه	السَّمع والطاعة	القدوة والشّجاعة
فاحملوا معي	طلبُ المساعدة	الإقدام.
لم يُعوزكم بطل عاقل تَسندون أموركم..	تهيئة القائد الذي ينوبه	معرض للقتل
فاخلفوني في عزمي هذه	طلبُ الخلافة في القيادة	القوة النفسيّة

انهمزم الجيوش بقتل القائد	مقاتلة العدو والتركيز على القائد	احملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا بهم بقتله.. فإنهم يخذلون
---------------------------	----------------------------------	---

والنتيجة التي تتوصل إليها بعد هذا التدرج المنطقي:
الانتصار الحتمي بعد القضاء على قائد جيش العدو

الخاتمة:

إن هذه الخطبة، تعتبر من روائع الأدب العربي، على الرغم مما لحقها من النعوت، وما شابها من صروف الأدباء، وما أسالته من حبر المؤرخين، في النسبة حيناً، والنفي آخر. وما لحقها من إضافات لا ينكرها أحد، بل وما أراد بعض المستشرقين من قتل روح الجهاد فيها، بأن أفرغوها من محتواها الروحي، وأخضعوا معانيها النبيلة للمادة، والبحث عن الحور الحسان، وما أنجبت الجزيرة من بنات [اليونان] وأنشأت من القصور والعقيان.. إلخ، كلها مما يريد هؤلاء دفع المتلقي للخطبة أن الفتح كان لهذا الأمر الدنيوي فقط، ولا بد أن زواله ضروري بعد تحققه.. وهذا أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة التاريخية، بل والجغرافية: وإلا ما شأن بنات اليونان؟ وما دخلهن هنا وهن أبعد ما يكن مكانا عن الأندلس.....

وقد ظهرت أخلاق البطولة، والفرسان في القائد الفاتح طارق بن زياد، وهي أخلاق لم تكن لتنكر، أو تخفى على أحد.. والخطبة المقدمة تبيّن ذلك بوضوح، وترد أمرهم المفصوح:

"جئتم لفتح الجزيرة، وإعلاء كلمة الله، وليست لكم غاية أخرى، وأنا أول مستجيب إلى ما دعوتكم إليه، حامل على العدو، فقاتله، فإن هلك قبله، فلا تركوه، وإن هلك بعده فاخلقوني، وبقتل القائد تفتح الجزيرة".

هذا ملخص الخطبة، وهذا القصد منها، وما وراء ذلك يبقى ثرياً للمدّاد الدارسين، عقول الفاتحين في الدراسات الأدبية، ولم لا العسكرية؟؟

الهوامش:

- ^{1/} المقرّي / نفح الطيب : 240/1.
- ^{2/} ابن خلكان .وفيات الأعيان 177/2 - 178 طبعة بولاق. في ترجمة موسى بن نصير.
- ^{3/} جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ج 1، ص 446.
- ^{4/} نعمان بوقرة، مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري. عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، إربد، ط1، 2009، ص106.
- ^{5/} . حافظ إسماعيلي علوي، الحجاج، مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2010، ج 1، ص2.
- ^{6/} رشيد الراضي، "الحجاجيات اللسانية عند انسكومبر وديكرو"، مجلة عالم الفكر، مجلد 34، عدد1، الكويت، سنة 2005، ص 225.
- ^{7/} . حسان الباهي، العمل والبناء الحجاجي، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، ج1، ص 216.
- ^{8/} نعمان بوقرة: مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري. عالم الكتب الحديث. 2009. ط1. ص: 110
- ^{9/} ينظر ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، ط 6، بيروت، لبنان، 1997 مادة حجاج، وجدل.
- ^{10/} محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع. ص: 44
- ^{11/} الجرجاني(أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن)، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي، بيروت ط3 1999، ص203
- ^{12/} آن روبول/جاك موشلار، التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، تر/سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط1. 2003. ص: 53
- ^{13/} طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 1. 1998. ص 269
- ^{14/} سامية الدريدي. دراسات في الحجاج. عالم الكتب الحديث. ط1. 2009. ص: 131
- ^{15/} وهذا ما سنجده في (قاعدة الربط الحجاجي) لاحقا.
- ^{16/} نعمان بوقرة: مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري. عالم الكتب الحديث. 2009. ط1. ص: 108
- ^{17/} حسن نحيس الملح، الحجاج في الدرس النحوي مجلة عالم الفكر، ع2، 40، أكتوبر، ديسمبر 2011، ص124

